

معالم نقدية في مسار تلقي الإبداع الأمازيغي وقراءته

أحمد المنادي

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

Cet article présente les aspects fondamentaux qui président à la réception et à la critique de la création amazighe en tant qu'objet d'étude. L'intérêt du critique et du poète réside dans l'évaluation du produit littéraire et de son esthétique, qui constitue une plate forme du discours critique amazighe. Aussi faudrait-il s'intéresser, d'abord, aux jugements critiques et esthétiques des poètes sur leur propre poésie, ensuite, à l'évaluation de l'Autre (ce niveau se réfère à la période coloniale) et, enfin, à l'étude de la critique de l'amazighe à travers les textes constituant le noyau de ce qu'on peut appeler la critique esthétique amazighe.

من المعلوم، في مجال الدراسات الأدبية والنقدية، أنّ مسار النقد يتم تشييده¹ عبر مراحل تلقي النصوص الإبداعية وقراءتها أو تأويلها. وأن تعاقب عمليات التلقي هذه وتراكم أحكامها الفنية هي التي تشكل في نهاية المطاف تاريخ تلقي النصوص وحصيلة المُجزر النقدي حيالها. من هذا المنطلق، سيكون مقالنا مجالا لبسط ثلاثة عناصر نراها أساسية لإلقاء نظرة على مسألة النقد والإبداع الأمازيغيين :

1. الشاعر الناقد: هل بإمكاننا الحديث عن مواقف نقدية من قبل الشاعر المبدع؟
2. تلقي الآخر للإبداع الأمازيغي، أو النقد الكولونيالي.
3. التلقي الجمالي وتأسيس النقد الأدبي الأمازيغي.

1- الشاعر الناقد

يلاحظ المتأمل في تاريخ الإبداع الأمازيغي أنه حافل بالنصوص والتعبير الأدبية التي ضاع الكثير منها بفعل غياب عملية التدوين، التي تمثل إحدى الأدوات الضرورية في التأريخ للإبداع وضمن استمراريته. ولعلّ ما حفظته ذاكرة الأمازيغ وتناقلته أجيالهم المتعاقبة، يمكن اعتباره بمثابة الآثار التي استحسنتها الذائفة العامة وتفاعل معها المتلقون فحفظوا بعضها وتداولوه إلى أن جاء عهد التدوين. فلو عدنا إلى تراثنا الشعري الشفوي لن نعدم فيه مجموعة من الإشارات التي تكتسي طابعا نقديا، مادام النقد تقييما للإبداع وللمبدع وإبداء للرأي تجاهه تعبيراً عن جماليته أو استهجاناً لنهجه. فالشاعر الأمازيغي يبادر أحيانا إلى إنتاج لغة وصفية يروم من خلالها الحديث عن الإبداع الجيد أو توصيف العملية الإبداعية بما يفيد قيمتها أو بيان صعوبة نسجها... وهي على قلتها يمكن أن نُدرجها ضمن الآراء النقدية التي تعتمد على الانطباعات الشخصية (النقد الانطباعي). والشعر الأمازيغي الشفوي فيه مادة مهمة تغري بالبحث في الموضوع، بحيث استعمل الشاعر الأمازيغي في شعره معجما نقديا أو لغة رمزية تعكس موقفه أو توصيفاته للقول الشعري، من قبيل: تاميمتْ نْ ومارگ I +oEHEX ومارگ I %oOX +، وتاميمتْ نْ واول I UoUoH +، وتاطفي نْ ومارگ I +oEHEX +، وأمشاشكا نْ واول I UoUoH +، وأبجر نْ تگوري I +X%OX +، و I oθIO +، وأسمحادا

¹ يستند فعل التشييد إلى مرجعية نقدية تتمثل في الإستمولوجيا التشييدية، التي تعد من المقاربات الجديدة في تحليل النص الأدبي.

نْ وَاوَالْ مِ لَمِ لَمِ لَمِ | لَمِ لَمِ لَمِ ، وَأَمَارِگِ أَمَاگُوسْ لَمِ لَمِ لَمِ ، وَأَزُوْرُورْ لَمِ لَمِ لَمِ ،
وَتَايُوْگَا لَمِ لَمِ لَمِ ، وَرُوَا لَمِ لَمِ ، وَنَرِيضْ لَمِ لَمِ لَمِ ... وَهَذِهِ بَعْضُ الْمَقَاطِعِ الشَّعْرِيَّةِ الْمَتْضَمَّةِ لِهَذَا
المعجم:

تَامِيْمَتْ نْ وَمَارِگِ لَمِ لَمِ لَمِ | لَمِ لَمِ لَمِ

"وَلَاهْ أَرْ نَرْمِي لَهَاوَا مَانَزَا تَاكَاذَا نَغْ
مَانَزَا وَيَلِي دَا دَا نَنْصَارَافْ أَفْلَانْ دَرْوَسَنْ
وَلَاهْ أَمَكْ أَغْ ثَلَا لَخِيْرَ أَمْرَ غْ تَيِيوْكََا نُوْ
أَمَّا أَمَارِگِ ثَلَا غْ لَمَوَاكَنْ وَّرْ نَمِيْمٌ نَبَاسَلْ"²

مِ لَمِ لَمِ لَمِ | لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ
لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ
مِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ
لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ

تَامِيْمَتْ نْ وَاوَالْ مِ لَمِ لَمِ لَمِ | لَمِ لَمِ لَمِ

"بِسْمِ اللّٰهِ اَرْسُوْلِ اللّٰهِ رِيْغِ اَدْ سَاوَلَنْغْ
أَوَالْ زَوْنِ دِ تَامَنْتْ، نَمِيْمٌ غْ نَمِي نْ كُوِيَانْ"³

لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ
لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ

تَاظْفِي نْ وَمَارِگِ لَمِ لَمِ لَمِ | لَمِ لَمِ لَمِ

"نُوَا بِيْسْمِي رِيْغِ اَدْ دَاغِ نَكَرْزِ نَمَكْرَ صَابْتِ
نَغْ ثَلَا لَخِيْرَ أَرْزَرْ كِيُوَانِ تَادَلَا تَلَمْ
رَبِّي سَامِحْ نَبِي مَقَارْ نَسَاوَلْ سَيِّطْفُ نَمِي نُو..."⁴

لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ
لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ
لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ لَمِ

أَمْشَانَشْكَانْ نْ وَاوَالْ مِ لَمِ لَمِ لَمِ | لَمِ لَمِ لَمِ

"أَنْگِيْدَرْ أَوَلَارِيْاشْ أِيَامْگِرُوْدِ أِيَاوِي سَلَامْ
نْ وَايُوْرْ نُنَا سْ: أَمَانَارِ وَالْاِبُوْدْ أَكْ نَزْرِي
وَاثَا ثَلَانْ لِعَاقَلْ أَرْ يِسْ نَمِيْمَاَزْ نَشَاظْرِي
مَكَّنَا نُّرَا وَاوَالْ نُّرَا وُكَا نْ أَتْ نُدْ نَشَاشْكَي"⁵

² مقطع من قصيدة لرئيس لحسين أمزيل وهي من النصوص المدونة في أرشيف مركز الدراسات الفنية والتعبير الأدبية والإنتاج السمعي البصري (CEAELPA)، بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.
³ من قصيدة "صَبْرٌ" لبوبكر أُنشَاد، م. س.
⁴ مطلع قصيدة "أرگاز د تمغارت" للشاعر محمد بودراع، من تسجيلات: بيضافون، رقم 99 / 097200. أ-ب،
والقصيدة من النصوص المدونة في أرشيف (CEAELPA).
⁵ قصيدة "نْگِيْدَرْ"، للشاعر رئيس لحسين بن حماد، تسجيل فيستا، رقم 4304. ب/ 78. أنظر أرشيف (CEAELPA).

◦ εΧεΛο ◦ Θ%ΠοΟς◦ ◦ οCΧΟ%Λ ◦ οΠε ΘΘΠοC
ε Ποεε%Ο εIο ◦Θ: ◦CοοO ΠοΠοΘ%ΛΛ ◦ Rκ ε#Qε
Ποο εΠοI ΠοοZΠ ◦O εΘ ε++Cεεε◦* εC◦EQε
Cκ Iο εOο ΠοΠοΠ εOο %RοI ◦Λ + εΛ εC◦Cκε.

εΘIΟ +◦X%Oε تبجر تاگوري

"نغ نبيد ناضيم نغر نربي أد أس نسامخ
تيطولبا أغلان، ور يوفي يان أغنا كبع ت
نغ تبجر تاگوري سيغ أس نا وييا: خنش"⁶.

εY εΘεΛΛ IοEεC εYο ε QΘΘε ◦Λ ◦Θ εΘοCΛ
+εEE%ΠΘ◦ ◦ εYΠοI, %O ε%Iε εοI ◦ εIο XεY +
εY εΘIΟ +◦X%Oε Θ εY ◦Θ Iο Πεεε◦: XIC.

ΘCΛ◦Λ◦ ◦ΠοΠ أوال سَمْحادا

"... ولا بو واول نغ نضمَن يان وقصيد
أ نسَمْحادا لأخبار زُون دْ دَرُوج
أ ور نئيني تيزنيت نئا بَعْداد"⁷.

%Π◦ Θ%ΠοΠοΠ εY IECI εοI %ZΘεE
◦ εΘCΛ◦Λ◦ IοXΘ◦O #%I Λ ΛΛO%I
◦ %O ε++εIε +ε#Iε+ εIο ΘYΛ◦Λ.

◦C◦OX ◦C◦X%◦O أمارك أماگوس

"أ يامارك أوزغيب ور نزوك ور يوضين ور نموت
نس هلي كان أماكوس لآح مات نئاسين"⁸.

◦ ◦C◦OX ◦ %#YεΘ %O ε#%X %O ε%EεI %O εCC%+
εΘ OΠΠε XοI ◦C%X◦Θ IοΛ C◦ ++ ε++◦ΘεI.

◦#%#%O أزوزر

"وا ببسمي الله را د نلوح تاقا نو
أ نتت نسروت نزوزر ت سول ناسي تن
أ تبع تامنت غ وكنس تم أ سلنت
أ بين كيس نك ربي لارزاق نئو"⁹.

Π◦ ΘεΘCε IΠ◦O O◦Λ IΠ%Λ +◦IΠ◦ I◦
◦ ++ I◦O%+ I#%#%O ++ O%Π I◦Oε ++
◦IεY +◦CCI+ Y %XIΘ IIC ◦ ΘOΠΠI+

⁶ من قصيدة "تايرات" للشاعر رايس مولاي موخ، أنظر: عمر أمير 1975 ص 27.
⁷ من قصيدة "مساك لخير" للشاعر رايس عمر واهروش، أنظر: عمر أمير 1975 ص 30.
⁸ من قصيدة للشاعر محمد لبصير، أنظر عمر أمير 1975 ص 29.
⁹ من قصيدة بسم الله للشاعر رايس محمد بودراع، وهي من النصوص المدونة في أرشيف (CEAELPA).

◦ ξϵϵ || χξθ ξχ Ϟθθς ιιοϞοϵ ξιθ.

تاڤوگا ◦ +◦ϵϵ%χ◦

"أبسمي لاه أ سّرس بْدُوغْ بُدُوغْ نَارْم
أوُولو غْ نُصْرَفَانْ أَعْ نَكْرَزْ نَكِيلَانْ".¹⁰

◦ θξθϵξ ιιι◦ϙ ◦ ϙ◙◙ θ∧%ϕ ∩∧% ∩◙ϙ
◦∩∩%ιιι% ϕ ξEQϫ◦∩ ◦ϕ ∩Ϟ◙◙ ξχξιιιι.

"ببسم لاه وِرّاحمان أد مديغ وُگوگ
نرار تيغولا س نكران نَعْ نلا يگيگ
نني مگرغ لخير ار داغ نكرز نْ وَايَاض
نني تن وِر نكرز رجا نوغ دار لواحيڊ".¹¹

θξθϵξ ιιι◦ϙ %◙◙∧ϙ◦∩ ◦∧ ϙ∧ξϕ %χχ%χ
∩◙◙◙ +ξϕ%ιι◦ ϙ ξχ◙◦∩ ξϕ ξιι◦ ξχχξχ
ξξ ϙχ◙ϕ ∩χξ◙◦◙ ∩◙ ∩◙ϕ ∩Ϟ◙◙ ξ ∩◙ϵϵ◙E
ξξ + ∩◙ ∩Ϟ◙◙ ϞϞ∩◦ ∩% ϕ ∩◙◙ ∩∩◙∧ξ∧.

رؤا ◙◙∩◙

"ريغ أ بن يعقوب نْ رّوا تيساليوين
أد داغ نزرگ بوغاز، أ وِرْ نبي شينْ سُلْمان".¹²

◙ξϕ ◦ θ∩ ϵ◦∧%θ ξ ◙◙∩◙ +ξ◙◙∩ξ∩ξ∩
◦∧ ∩◙ϕ ∩Ϟ◙◙ θ%ϕ◙◙, ◦◙◙ ξϵϵ ϙϙξ∩ ξ◙∩ϙ◦∩.

"أ سيدي حُساين بْدْ ي رّوا نو سنمالات
غَمْكَ أَد نَمَلا نْدْ ن لِحايك ف وُغانيم".¹³

◦ ϙξ∧ξ ∧◙◙∩ ∩∧∧ ξ ◙◙∩◙ ∩% ϙ∩ϙ◦∩◙ +
ϕϞϞ ◦∧ ξ∩ϙ◦∩◙ ξ∧∧ ∩∩∧◙ϞϞ ∩% ∩ϕ◦∩ξϙ.

يتبين من خلال النماذج أعلاه، أن الشاعر الأمازيغي أسعفته لغته في التعبير عن مواقفه تجاه الشعر من حيث الجودة والنظم والتأثير، مستثمرا ألفاظا أخذت بُعدا رمزيا في سياقاتها التداولية، وصارت بمثابة مصطلحات واصفة للعمل الإبداعي. ويمكننا أن نسجل في هذا المقام ما يأتي:

– إن الصيغ والأحكام الواردة في الشعر الشفوي هي مجرد انطباعات نقدية، لكنها تعكس الحس المنهجي للشاعر ونزوعه النقدي، كما تعبر عن ذوقه الجمالي¹⁴. وهذه الانطباعات النقدية

¹⁰ الشاعر رّايس حماد بيزماون، أنظر: عمر أمرير 1975 ص 139.
¹¹ مطلع قصيدة "ما گمُ أ تاسا ياغني" للشاعر محمد نحجي، من تسجيلات فيليبس، باثي: رقم: 7959، من النصوص المدونة في أرشيف (CEAELPA).
¹² من قصيدة بن يعقوب للشاعر الرزّوق، تسجيلات باثي رقم 8319. ب. من النصوص المدونة في أرشيف (CEAELPA).
¹³ ورد المقطع في نص إثنولوجي بعنوان "الحالت ن نضّامن ن زيك"، نسخه من خزائن Arsène Roux.

ومفردات اللغة الواصفة التي اعتمدها الشاعر تستند إلى مرجعية أساسية تكمن في المواضيع الاجتماعية، وتستمد معجمها من الحياة المعيشة للمبدع والمتلقي وبيئتهما (على سبيل المثال، المعجم الذي يحيل على مجال الفلاحة وتقاليدها...).
- لا بدّ من استحضار المتلقي ودوره في نقد الشعر الشفوي، حيث التواصل الإبداعي بين الشاعر والمتلقي مباشر¹⁵. فالمتلقون في هذا السياق يمارسون نوعا من النقد، فترى أحدهم يتدخل فجأة أثناء نظم الشاعر لإبداعه، خاصة في المحاورات الشعرية، فيعبر عن إعجابه بالقول الشعري مرددا بعض العبارات التي تقيد تأثيره بالموقف، أو يتدخل لاستهجان النظم، كما تجد النساء في بعض المناطق أشدّ حرصا على تتبع كلام الشاعر أثناء النظم، فيعبرن عن تفاعلهن معه عبر زغاريدهن، وفي ذلك موقف جمالي من الإبداع.

2- تلقّي الآخر للإبداع الأمازيغي، أو النقد الكولونيالي.

تعدّ الكتابات الكولونيالية محطة مهمة في تلقي الإبداعات الأمازيغية. فقد كان المستشرقون سباقين إلى التعاطي مع الإنتاج الأدبي الأمازيغي الشفوي وتأويله. والاستشراق، كما هو معلوم، كان له بُعد علمي حضاري صرف، لكن سرعان ما أخذ في ما بعد بُعدا استعماريًا إلى جانب بُعد العلم، حيث أنشئت مدارس (خاصة في فرنسا) لتعليم اللغات الشرقية (والشرق هنا يشمل عمليا المشرق وشمال أفريقيا)، وخلقّت بهذه المدارس كراس للدراسات العربية والإسلامية وللهجاء العامية... "ومنذ احتلال الجزائر بدأ التفكير أيضا في الدراسات الأمازيغية لغة وتقاليد ومجتمعاً وحضارة إلى جانب التاريخ والجغرافيا. وما من شك في أن الاهتمام بالدراسات الأمازيغية كان له أيضا بُعد استعماري" (غلاب، 1993: 21). وزاد هذا الاهتمام بالأمازيغية وثقافتها لما كان المغرب بدوره وجهة للاستعمار، خاصة وأن الأبحاث التي أنجزت آنذاك حول المغرب، "كانت دائما، ومنذ البداية، تؤكد على وجود نسبة كبيرة من الناطقين بالبربرية، بين سكانه" (بورك، 1993: 97).

في هذا السياق، ووفق هذه الرؤية، انبرى عدد غير قليل من الأجانب للبحث في الأدب الأمازيغي جمعا وتدوينا ودراسة. وبدلوا جهودا كبيرة، بفضل الوسائل والأدوات العلمية والمادية المتاحة لهم، للخوض في غمار الثقافة الأمازيغية وأدابها، وكانت ثمرة هذا الجهد الذي استمر قرابة قرن من الزمن، جملة من النتائج أهمها:

- ✓ جمع عدد لا بأس به من النصوص الأدبية الشعرية والنثرية التي كانت مهددة بالضياع¹⁶.
- ✓ توثيق المتون المدوّنة ونشرها في كتب ودوريات ومنابر متخصصة.
- ✓ تقديم معرفة كولونيالية تعكس قراءتهم وتأويلهم للإبداعات التي تلقوها.
- ✓ إنتاج خطاب متخصص يمكن تسميته بالنقد الإثنولوجي، تعامل مع النصوص الأدبية الأمازيغية تعاملًا إثنوغرافيا، مقصده الأساس الوصف الثقافي والاجتماعي، ومن ثم استنتاج خصائص الذهنيات المنتجة لهذا الإبداع.

¹⁴ لعل هذه الإشارات تعيد إلى أذهاننا مسألة الشاعر الناقد، فقد ميّز إليوت بين ثلاثة أنواع من النقد، النقد الخلاق والنقد التاريخي الأخلاقي ثم النقد الحقيقي، واعتبر النقد الحقيقي نقدا أصيلا يصدر من الشاعر الناقد الذي ينتقد الشعر من أجل أن يخلق الشعر (رينيه ويليك: مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، عدد 110 فبراير 1987، ص 339).

¹⁵ نحيل هنا على أهمية نظريات التلقي والتواصل التفاعلي في مجال الإبداع. وخصوصا في التمييز بين أنماط المتلقين ودرجاتهم في تلقي الأعمال الإبداعية.

¹⁶ يمكن الإحالة هنا على أعمال:

- Delaporte, J. Honorat, (1840).
- Justinard, Leopold, (1925).
- Laoust, Emile, (1928, 1949).
- Roux, Arsène, (1942).
- Galand-Pernet, Paulette, (1972).

إن تلقي بعض هؤلاء الدارسين للإبداع الأمازيغي لم يخل من مزلق، فهو عمل تأويلي لم يحد عن الإطار العام للسياسة الاستعمارية. فالنوايل "خلاصة معرفة وفهم، وثمررة التزام بمنهج معلوم فيهما، وبالتالي فهو قراءة ما لموضوع المعرفة ومادة التأمل، فهو مرتبط بأفاق تلك القراءة ومتعلق بشروطها المعرفية، ومشودود إلى حيثياتها التاريخية والحضارية، ومحكوم بنوازعها الأيديولوجية..." (بنسعيد العلوي، 1993: 56)..

ولعل من أهم المصادر الأساسية في هذا الباب كتاب لـ *Henri Basset* بعنوان *Essai sur la littérature des Berbères* الذي يُعتبر "مرجعا أوليا في تاريخ الآداب الأمازيغية، حيث قُدمت فيه أول حصيلة تناولت بالوصف والتحليل الإنتاج الأدبي الأمازيغي المعروف لدى الأوروبيين إلى حدود الحرب العالمية الأولى. وقبل صدور هذا المؤلف، نُشرت بعض النماذج من التقليد الشفهي الأمازيغي من شعر ونثر مستنسخة بالحرف اللاتيني، أما الأبحاث ذات الصبغة التحليلية فكانت منعقدة..." (بوكوس، 2001: 576).

إن إشارتنا إلى هذا النموذج في تلقي الأدب الأمازيغي وتأويله نابعة من كونه يعكس الصورة الحقيقية لبعض القراءات التي جعلت من هذه الثقافة وهذا الأدب موضوعا لها، لكن العوائق المعرفية والأحكام المسبقة منعناها من اكتشاف حقيقة الإبداع وطاقتة الجمالية، ومن ثم حالت دون تأسيس نقد أدبي يحتكم إلى مقاييس الفن وقواعده. ولذلك سرعان ما تجد هؤلاء الأجانب ينجرون وراء هوى الاستعمار فيطلقون أحكامهم جزافا. ومن الأحكام الصادرة عن هذه المعرفة الكولونيالية في حق الأدب الأمازيغي الاعتقاد بـ "أن تجليات الكتابة الأدبية لدى الأمازيغ محاولات أولية محدودة من حيث الشكل والمضمون، وهي تعكس في واقع الأمر مدى تخلف المجتمعات الأمازيغية" (نفسه: 579) أو إيمانهم بأن "الأجناس النثرية لدى الأمازيغ موسومة بالساذجة والظفرة وانعدام الخيال المبدع، أما الأجناس الشعرية فيعوزها الابتكار فكرا وتعبيرا" (نفسه: 580). وعموما فالكتابات الكولونيالية انصبت على "جمع وتدوين ووصف أهم الأجناس الأدبية الأمازيغية، تمشيا مع أهداف وخلفيات نفس الاهتمام الذي طال مختلف الإنتاجات الثقافية في مناطق النفوذ الإستعماري، إذ أن معظم ما تراكم من هذه الدراسات، التي لا تخلو من أهمية وعمق أحيانا، يطغى عليها الطابع الإثنوغرافي والفولكلوري الغرائبي الذي ينتج عن تصورات عرقية أوروبية تتشغل أساسا بما من شأنه إبراز خصوصيات وغرابة العقلية المغاربية من خلال وصف مختلف أشكال التعبير الصادرة عن الأهالي المنتجين للثقافة المحلية" (المجاهد، 1992: 131). إنه من الطبيعي أن يكون تلقي الآخر لهذه التعبيرات الفنية والأدبية، في مرحلة الاستعمار أو مرحلة التهييء له، منطلقا من الذخيرة المعرفية والأيديولوجية لهذا المتلقي، والتي لم تخرج عن الإطار المعرفي العام للاستعمار، لكن التعاطي العلمي مع مسار هذا التلقي والتأويل يقتضي الإقرار بوجود أفضل له على هذه اللغة وهذا الأدب، مثلتها بعض الكتابات التي كانت منصفة في تناول الموضوع، أو التي حرصت على تغليب الطابع العلمي في البحث. وبالرغم من ذلك - وما نتج عن هذه المرحلة من تحفيز لبعض الباحثين والمهتمين المغاربة الناطقين بالأمازيغية لجعل مجالها موضوعا لبحوثهم واهتماماتهم، ستظهر نتائجها الإيجابية في ما بعد الاستعمار - لم تستطع المرحلة أن تُبلور نقدا يمكن "الاطمئنان" إليه لتأسيس خطاب نقدي أمازيغي حقيقي.

أمام هذه التجربة وما راكمته من إنتاج ونقد في تعاطيها مع الأدب الأمازيغي، نجد أنفسنا بحاجة إلى أمرين أساسيين:

- ✓ أولا: العودة إلى هذه المعرفة الكولونيالية ومقاربتها "مقاربة تتأسس على أسس النقد التاريخاني" في التعامل معها والاستفادة منها (بوكوس، مرجع سابق) ، بالنظر إلى النزعة العقلانية التي تعتمد عليها المقاربة التاريخانية في تحليلها للظواهر والقضايا.
- ✓ ثانيا: نقد هذا الخطاب الذي أنشأه الأجانب حول الإبداع الأمازيغي، وإعادة "ترميمه" والبحث فيه حتى تُستخرج منه مجموعة من القضايا التي من شأنها أن تساعد على صياغة أسئلة

جديدة وإنشاء خطاب جديد تجاه أدب المرحلة الكولونيالية، سواء من خلال المصادر المنشورة أم الوثائق التي لا تزال عبارة عن مخطوطات في الخزائن الأوروبية¹⁷.

3- التلقي الجمالي وتأسيس النقد الأدبي الأمازيغي.

انشغل بعض المنقّبين والمهتمين من الأمازيغ في السنوات السبعين والثمانين من القرن الماضي، بدراسة الأدب الأمازيغي وتعاييره المختلفة، في إطار بحوث جامعية أو مبادرات فردية نابعة من الشعور بالانتماء لثقافة زاخرة بأشكال التعبير والإبداع. من هنا برز نوع من الاشتغال النقدي على الإبداع الأمازيغي، لكنه في عمومته محكوم بهاجس الكمّ (أمّلته طبيعة المرحلة وضرورة التأسيس المعرفي، أي هاجس التراكم على مستوى النصّ الإبداعي)، فأتجهت الجهود نحو التثقيب عن النصوص وإخراجها إلى الوجود أو نقلها من بنية الثقافة الشفوية إلى بنية الثقافة المكتوبة (من المسموع إلى المقروء)، والانشغال بالموضوعات والمضامين (عمر أميرير 1975، 1987 ومحمد مستاوي 1979، وعبد الله المعالي 1984...). إن هذه الأعمال المنجزة تميل إلى ممارسة تأريخ الأدب أكثر منه إلى ممارسة النقد، على اعتبار أن التأريخ الأدبي يهتم بجمع النصوص وتاريخها والتعريف بأعلامها، وهذا حال معظمها في تلك المرحلة، وهو أمر طبيعي كما أشرنا آنفاً، يستقيم وطبيعة الظرف الذي يمرّ منه البحث في الأدب الأمازيغي والاهتمام به. فكان لا بد من اعتماد المقاربة الكمية والتوثيقية ناهيك عن هاجس الجمع والتدوين الذي اقتضته ندرة المكتوب. وتوضح قيمة المنجز في هذه المرحلة إذا علمنا "المجازفة" التي يقع فيها كل من بادر إلى الحديث عن شيء اسمه الأدب الأمازيغي، وبالأحرى البحث فيه. وحتى الأعمال التي أفلحت في أن ترى النور حينئذ - خاصة على المستوى الأكاديمي في الجامعات المغربية - إنما أُنجزت تحت عنوان البحث في الثقافة الشعبية.

وإذا جاز أن نتحدّث عن إبدال التأسيس في نقد الإبداع الأمازيغي وتلقيه، فيمكن الحديث هنا عن إسهامات بعينها شكّلت في نظرنا المعالم الأولى في سبيل تشييد خطاب نقدي حول الإبداع الأمازيغي، برزت في خضمّ هذا الاهتمام المطبوع بهاجس الكمّ وبهيمنة المقاربات الموضوعاتية، والقصد هنا إلى قليل من الكتابات من قبيل: المقالات التي نشرها الباحث أحمد عصيد (1981¹⁸، 1992أ، 1992ب، 1992ج) منذ بداية الثمانينات، ومقالات الباحث الحسين المجاهد (1992أ، 1992ب، 1994، 2004) وغير ذلك من البحوث الأكاديمية التي نوقش بعضها في الجامعات الفرنسية والمغربية (حسن جواد 1983 وعبد الله بونفور 1985 وعمر أميرير 1998). وقد تميّزت هذه التجارب باستثمار التراكم المعرفي لدى أصحابها في قراءة النصّ الأمازيغي، الشفوي والمكتوب، خاصة على مستوى مفاهيم النقد والقراءة، وطوّرت لغة النقد وأسلوبه، مستلهمة الخلفيات المعرفية والأطر النظرية التي تحققت لهؤلاء الدارسين من خلال تكوينهم في مختلف حقول المعرفة، من فلسفة ونقد ولسانيات. وهكذا فتحت التجربة المجال لجهاز مفاهيمي جديد، ومعجم نقدي متخصص، من قبيل ما نجد في مقاربات الشعر: المغامرة الشعرية، وشعرية النص، والتماسك الرؤيوي في الشعر الأمازيغي، والأفق الشعري، وحساسية الشعر الأمازيغي، والحساسية الإبداعية، والرؤية الإبداعية، والعمق الفني وقوانين النظام الداخلي، ووعي الحركة الشعرية الأمازيغية، والتجربة الشعرية الأمازيغية، والطاقت الجمالية، ونظام الصورة الشعرية، وهلمّ جرّاً. أو كما نجد في دراسة السرد الأمازيغي، من قبيل: شعرية السرد، وتنظيم السرد أو البناء السرد، والخطاب، والوظيفة، وبنىات الفضاء، واستراتيجية السرد والرؤية إلى العالم... (خديجة محسن 2004 ومحمد بادرة 1997 ومحمد أقوضاض 2007). لعل هذه المفردات شكّلت قيمة مضافة لتاريخ تلقي الأدب الأمازيغي وفتحت أفقا جديداً "يتجاوز" هواجس التجارب السابقة. إن هذه الإسهامات تتمّ عن توجّه جديد في تلقي الأدب

¹⁷ يمكن الإشارة على سبيل المثال إلى إحدى الخزائن المهمّة في فرنسا بمدينة Aix-en-Provence ويتعلق الأمر بأرشيف الوثائق Centre des archives d'Outre-mer (C.A.O.M) وكذلك خزائن Arsène Roux.

¹⁸ يُعدّ مقال أحمد عصيد الموسوم "عن قيود الضحك والبكاء" المنشور سنة 1981 أول كتابه حول ديواني محمد مستاوي "نسكراف" و"تاضصا د نمطاون".

الأمازيغي، تنطلق من مفاهيم وأدوات منهجية تتفاعل من خلالها الذات القارئة/الناقدة مع النصوص قديمها وحديثها، أي أننا أمام عملية تلقٍ استدعت في سياق التفاعل جملة من الأسئلة والإشكالات المصاحبة لصيرورة الثقافة والأدب في المجال الأمازيغي، بحيث إن كل قراءة وتلقٍ أو تأويل للإبداع الأمازيغي محكوم بسياقه الاجتماعي والثقافي. ومن أهم القضايا الجوهرية التي طرحت في هذا السياق: الأسئلة الخاصة بالمرور من بنية ثقافية شفوية إلى بنية ثقافية جديدة أدواتها التواصلية والتفاعلية مختلفة عن الأولى، كمفهوم النص الشعري بين البنيتين، ومصير التقاليد الفنية والجمالية التي رسختها الآداب الشفاهية، وهل بمقدورنا تشييد تاريخ لقراءة الشعر الأمازيغي الشفوي وتلقيه اعتماداً على النصوص المدونة فقط؟ وهل بإمكان تجربة الكتابة أن تؤسس شعريتها بعيداً عن شعرية الإنشاد؟ وقضايا تحديث النص الشعري الأمازيغي...

نحو أفق للتفكير

يكون النقد في أحد أوجهه احتقالاتاً بالقيم والصفات المميزة للنص أو النوع الأدبي. والممارسة النقدية هي التي بمقدورها أولاً: الكشف عن المقومات الفنية الخاصة باللغة والإيقاع والصورة وكل الأبعاد الجمالية للنص الإبداعي، وثانياً: بيان المقومات الدلالية وطرق صناعة المعنى في الكلام الأدبي، مع ما قد يقتضيه ذلك من إحالات على النسق الثقافي العام لهذا الإبداع بفعل الصلة المفترضة بينه وبين التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي...

على هذا الأساس نرى ضرورة أن يهتم الدارسون بالإسهام في دراسة الأدب الأمازيغي من خلال:

- البحث في التطور التاريخي للنصوص الإبداعية،
- وصف فني لأشكال التعبير التي تداولها الأمازيغ عبر تاريخهم الطويل،
- تحديد النماذج النصية التي يمكن اعتبارها علامات على النوع الأدبي، حتى نتمكن من بناء تعريفات دقيقة تساعد على نمذجة أجناس الأدب الأمازيغي...
- الوقوف على تقاليد تلقي الأدب، لكونها تساعد على تفكيك مكونات سنن التلقي وآفاقه، ومن ثم رصد العناصر الأولية والصياغات والآراء النقدية التي تؤسس للخطاب النقدي/التلقائي الانطباعي...

وعليه، فثمة حاجة، بخصوص الإبداع الشفوي، إلى دراسة نقدية لمكونات الإبداعات الشفوية لتحرير مناظ الجمال في كل نوع، وإبراز الطواهر الفنية التي تميزه، ثم البحث في إمكانيات تصنيف المادة الأدبية إلى اتجاهات أو مدارس إبداعية. ومما يستلزم هذا الأمر وجود متون أدبية كثيرة تم تدوينها وجمعها من طرف المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية في إطار مؤسسي (تعاقدات المعهد مع الباحثين في المجال)، تحقق، بجانب المبادرات الفردية كأعمال الطلبة الباحثين وبعض المهتمين، رصيذاً أو قاعدة معطيات أدبية غاية في الأهمية.

أما بخصوص الإبداع المكتوب فثمة حاجة إلى الكشف عن حدود اتصاله وانفصاله عن الشق الشفوي، وإلى مواكبة نقدية من شأنها أن تقيم تجربة الكتابة الجديدة، أي الإبداعات التي سلكت مسلك الكتابة منذ أول عمل إلى اليوم، وتقوم مسارها. فبالرغم من أهمية النصوص المكتوبة¹⁹، نضطر إلى إعادة تأكيد ما ذكره الباحث الحسين المجاهد في تقييمه للتجربة سنة 1992 من أن "ظاهرة التأليف في الأمازيغية... رغم ما أفرزته من تراكم، لم تحظ بعد بما يلزم من تثمين ونقد إذ ما زالت في مرحلة التجربة ولم يتأسس بعد أي اتجاه نقدي يكشف عن خصوصياتها وما يكتنفها من إشكاليات، كما أن من شأن مثل هذا النقد أن يجيب عن التساؤلات المطروحة بشأن عناصر نمو التجربة وآفاقها، علماً بأن الأمر يتعلق بمنعطف حاسم في تاريخ الأدب الأمازيغي" (المجاهد، 1992: 132). والنقد هو الكفيل بأن يميز في هذه النصوص، الشفوية وغيرها، بين ما هو نص عادٍ وبين ما هو نص فني، وهذا أمر

¹⁹ حصيلة إصدارات الأدب الأمازيغي المكتوب، إلى حدود كتابة هذا المقال: أربعون ديواناً تقريباً، وثلاث عشرة رواية، وست عشرة مجموعة قصصية.

يحتاج إلى الكشف عن الطاقات الجمالية الكامنة في النصوص لأنها المعيار الأساس في عملية التمييز.

إن التحدي المفروض على كل دارس ومهتم بالأدب الأمازيغي هو تحدّي منهجي أولاً، ينطوي على سؤال الكيف، كيف نواجه ما راكمته تجارب الإبداع الأمازيغي عبر مساراته وتعاييره المختلفة، ومعرفي ثانياً، يستلزم سؤال المعرفة الأدبية والنقدية التي من شأنها أن توطّر الاشتغال على هذا الأدب من جهة، وتُشكّل أدواته التحليلية من جهة أخرى. وعلى هذا الأساس، نرى من الضروري أن يكون برنامج عمل المهتمين بهذا الموضوع مرتكزاً على الخطوات الآتية:

- 1- استكمال عملية الجمع والتدوين وفق المناهج المعمول بها في تدوين التراث الشفوي الإنساني.
- 2- اقتراح تحقيق لهذا الأدب وفق ما تسمح به تراكماته، الشفويّ منها والمكتوب، مع الاستفادة من الجهود النظرية والتطبيقية لمناهج التحقيق المعتمدة في الآداب العالمية.
- 3- نقد هذا الأدب وقراءته لرسم الأفق الجمالي له، مع ضرورة الانتقال إلى مرحلة نقد الأدب الأمازيغي بالأمازيغية.

ولعل هذا لن يتأتّى إلا بوضع خطة عمل ينخرط فيها كل الفاعلين في الموضوع: الباحثون الجامعيون (خاصة منهم الذين أسندت لهم مهام تدريس الأدب الأمازيغي في ماسترات ومسالك الدراسات الأمازيغية)، والمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية (وتحديداً مركز الدراسات الفنية والأدبية)، والإطارات الأدبية التي بدأت تتشكّل وتهتمّ بالموضوع (مثل رابطة "تيرا" بالجنوب).

الببليوغرافيا

أقوضاض، محمد. (2007)، *شعرية السرد الأمازيغي*، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.

أمير، عمر. (1987)، *الشعر الأمازيغي المنسوب إلى سيدي حمّو الطالب*، مطبعة التيسير، الدار البيضاء، [الطبعة 1].

أمير، عمر. (1975)، *الشعر المغربي الأمازيغي*، الطبعة 1، دار الكتاب، الدار البيضاء.

أمير، عمر. (2003)، *رموز الشعر الأمازيغي وتأثرها بالإسلام*، الطبعة 1، دار السلام للطباعة والنشر، الرباط.

بادرة، محمد. (1997)، *الحكاية الشعبية الأمازيغية السوسية: البنية والوظيفة*، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط.

بنسعيد العلوي، سعيد. (1993)، "صورة المغرب في الاستشراق الفرنسي المعاصر"، *المغرب في الدراسات الاستشراقية*، أعمال الندوة السادسة لأكاديمية المملكة المغربية بمراكش، ص 37-61.

بورك، إدموند. (1993)، "صورة الدولة المغربية في الأدبيات الإثنولوجية الفرنسية"، *أمل*، عدد 3. ص 91-125.

بوكوس، أحمد. (2001)، "قراءة في كتاب Henri Essai sur la littérature des Berbères Basset" *مجلة المناهل*، عدد 65/64. ص 575-581.

عصيد، أحمد. (1981)، "عن قيود الضحك والبكاء"، *جريدة العلم* 9 يناير 1981، ص 2-7.

عصيد، أحمد. (1992أ)، "خطاب الحكمة في الشعر الأمازيغي" *تاسكلان تمازيغت مدخل إلى الأدب الأمازيغي*، الملتقى الأول للأدب الأمازيغي بالدار البيضاء 17 و 18 ماي 1991. ص 143-153.

عصيد، أحمد. (1992ب)، "هاجس التحديث في النص الشعري الأمازيغي المكتوب"، *مجلة آفاق* (اتحاد كتاب المغرب)، عدد 1. ص 135-139.

عصيد، أحمد. (1992ج)، "ديوان الشعر الأمازيغي الجديد بين سلطة المسموع وأزمة المكتوب"، *الرايس حماد أمنتاك*، أعمال ندوة تكريم الشاعر الرايس حماد أمنتاك، منشورات الجمعية المغربية للبحث و التبادل الثقافي، ص 51-70.

غلاب، عبد الكريم. (1993)، "تمهيد لأعمال ندوة المغرب في الدراسات الاستشراقية"، *المغرب في الدراسات الاستشراقية*، أعمال الندوة السادسة لأكاديمية المملكة المغربية بمراكش، ص 17-36.

المجاهد، الحسين. (1992)، "لمحة عن الأدب الأمازيغي في المغرب" *مجلة آفاق* عدد 1. ص 125-134.

مستاوي، محمد. (1979)، *أمثال أمازيغية معرّبة ثان ويئي زرينين*، الدار البيضاء.

المعاوي، عبد الله. (1984)، *الشعر الغنائي السوسي: القصيدة*، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط.

Basset, H, (1920), *Essai sur la littérature des Berbères*, ancienne maison Bastide, Alger, Jourdan.

Bonfour, A. (1991), *Introduction à la littérature berbère, T1 la poésie*, Paris, Peeters.

Delaporte, J. H, (1840), *Grammaire de la langue berbère*, Paris.

El Moujahid, H. (1992), « la poésie berbère tachelhit entre l'oralité et l'écriture : cas de la production de M. Moustouï », *Ecriture et oralité*, Actes du colloque organisé par FLSH Fès. p.195-203.

El Moujahid, H. (1994), « La dimension interculturelle dans la poésie berbère tachelhit moderne », *L'interculturel au Maroc*, Afrique Orient, Casablanca, p. 109-126.

El Moujahid, H. (2004), « Poétique de Mohammad Moustouï ou Poésie de l'entre-deux », *La littérature amazighe : Oralité et écriture*, Actes du colloque international organisé par CEAELPA-IRCAM, à Rabat les 23, 24 et 25 octobre 2003, p. 217-221.

Galand-Pernet, P. (1972), *Recueil de poèmes chleuhs*, Paris.

Galand-Pernet, P. (1998), *Littérature berbère, des voix des lettres*, Paris, PUF.

Jouad, H. (1983), *Les éléments de la versification en berbère marocain tamazight et tachelhit*. Doctorat de troisième cycle, Paris3, Université de la Sorbonne nouvelle.

Jouad, H. (1995), *Le calcul inconscient de l'improvisation*, Paris, Peeters.

Justinard, L. (1925), Poèmes chleuhs recueillis du Sous, revue du *monde musulman*, 60.

Laoust, E. (1928), *Chants berbères contre l'occupation française*, France.

Mouhsine, Kh. (2004), « Poétique du récit de l'oral à l'écrit », *La littérature amazighe : Oralité et écriture*, Actes du colloque international organisé par CEAELPA-IRCAM, à Rabat les 23, 24 et 25 octobre 2003, p. 249-265.

Roux, A. (1942), *Récits contes et légendes berbères en tachelhit*.